

القرآن ودعامة الوحدة بين العرب والإسلام

يجب أن يأخذ القرآن المكانة الأولى في الدراسات الجامعية .

للدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

استاذة كرسي اللغة العربية وآدابها
(جامعة عين شمس)

وجاء الإسلام فتم له فتح هذه الاقطار في اقل من قرن ، وترك لها حرية العقيدة واللسان ، فلم تلبث أن اعتنقت ديننا عن طواعية واختيار ، ثم بدأت تعرب من الجيل الاول بعد الفتح ، فلم يمض جيل او اثنان حتى تم تعربها ودخلت فيما يعرف في التاريخ بدور العروبة الصريحة .

وعن طواعية كذلك ، تخلت عن لغاتها الاولى ، لهذه اللغة العربية ، لغة القراءان ، كتاب دينها .

لقد كان لمصر مثلاً لغتها القومية قبل الفتح الاسلامي ، ثم لما أسلمت بدأت من عصر الفتح تتعلم لغة دينها . وتشهد وثائق من البردي - في دار الكتب بالقاهرة ومكتبة البرتينا في فيينا - بأن محاولة التعرب اللغوي بدأت مبكرة ، إذ نجد نصوصاً عن عصر الفتح باللغتين المصرية والعربية معاً ، ثم نجد نصوصاً عربية خالصة من الرسائل والمعاملات التجارية بين أفراد الشعب .

ولا مجال للقول بأن المصريين انما تعلموا العربية لمجرد كونها اللغة الرسمية ، فلفات الغزاة قبل الإسلام كانت لغات رسمية ، وظلت اللغة المصرية معها لسان الشعب لم يتخل عنها لغة أجنبية .

* * *

1 (التلازم او الارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، ليس في حاجة الى جديد يقال ، بعد الذي شهد به الواقع التاريخي من ان اللغة العربية تدين بحيويتها وبقائها وسعة انتشارها ، الى نزول كتاب الاسلام بها ، فانتشرت معه حيثما اظلم لواءه تلك الاقطار التي اعتنقت الاسلام ديناً ، واستبدلت بلغة كتابه لغتها القديمة .

فالقضية من هذه الناحية ، غير مطروحة للبحث والنظر ، الا ان تكون في حاجة الى التفسير التاريخي لحركة انتشار العربية بانتشار الاسلام ، في المنطقة المعروفة بالوطن العربي الاسلامي ، حيث نرى نحو مائتي مليون عربي من وادي الرافدين الى اقصى المغرب والسودان ، تربطهم وحدة اللسان بما تعني من وحدة الفكر والوجدان ، الى جانب الروابط الاخرى من وحدة العقيدة والتاريخ والمناخ المادي والمعنوي .

هذه الامة بدأت بالاسلام تاريخها المشترك واخذت منه لسانها الواحد ، ولقد عاشت شعوب المنطقة نحو الف عام قبل الاسلام ، خاضعة للحكم الروماني او اليوناني او الفارسي ، وحاول الغزاة ان يفرضوا عليها عقائدهم ولغاتهم وقومياتهم ، لكنهم خرجوا منها جميعاً لم يتركوا وراءهم قومية رومانية او يونانية او فارسية .

والعربية لا تدين للاسلام بانتشارها فحسب ، ولكنها تدين له كذلك بكل علومها الاصلية التي نشأت اساسا لخدمة كتاب الاسلام : فمع اتساع الدولة الاسلامية واختلاط اللسان والثقافات وفسو العجمة، نشطت حركة الجمع لتراث الفصحى ، في القرن الثاني الهجري ، فصدت الى حماية لسان الامة ولغة كتاب دينها . ومن هذا التراث الاصيل صنفت معاجم اللغة لخدمة الفاظ القرآن ، ووضع علم النحو واللغة لتوجيه اعرابه ، وصنفت كتب البلاغة لمعرفة اسراره في التعبير والبيان كما الفت علوم الاسلام باللغة العربية : دونت اصول الفقه والشريعة وكتب الحديث والتفسير ، والسير والتاريخ والبلدان ، والفلسفة الاسلامية . والى العربية ترجم تراث الفكر والعلوم القديمة ، وبالعربية الفت كتب العلوم من طب وكيمياء ورياضيات وفلك . . .

واكثر الذين صنفوا هذه الذخائر التي ملأت دور الكتب الاسلامية من نيسابور الى فاس وقرطبة ، كانوا من الشعوب التي تعربت بعد الاسلام ، لا يقتصر ذلك على العلوم الطارئة فحسب ، ولكنه يتجاوزها الى صميم علوم العربية والاسلام .

(2) ولا اظن ان الوعي الاسلامي في عصرنا او في اي عصر مضى ، كان يقوى او يضعف بما يعترى اللغة العربية من قوة او ضعف . بل الصحيح انها التي تتأثر بالوعي الاسلامي قوة وضعفا . ومهما تختلف على تفاوت الوعي الاسلامي بين قطر وآخر من اقطار الوطن العربي ، فالذي لا ريب فيه ان وجود القرآن الكريم قد كان حارسا لقدرة من هذا الوعي لم يخذل الامة في عصور محنتها ، وبفضله بقيت العربية تتحدى ذرائع الغزو .

ويجب ان نفرق هنا ، بين الوعي الاسلامي وبين المستوى الثقافي او العلمي للشعب : لقد امتحنت هذه الامة بالغزو الصليبي والاعصار التتري ، فكان لها من الوعي الاسلامي ما حرس وجودها . ثم لما غشيها الحكم العثماني فشت فيها الامية حتى اسلمها الى الاستعمار الذي تقاسم تركة الرجل المريض ، كان وعيها الاسلامي وحده ، هو المشعل الذي اضاء مسراها في غشية المحنة ، وقاومت به عوامل التدويب والادماج والموت ، وخاضت به معارك التحرير الباسلة .

كان القرآن هناك في ذلك الليل الطويل ، كتابا للاميين ينسخ اميتهم بكلمات الله . وفي المدرسة القرآنية تلقوا زاد وعيهم ، ومن ثم بقيت اللغة العربية في كتابنا الاكبر ، متصلة بالوجدان العام للامة ، على

تابع المصور والاجيال ، رغم غشية الامية وضراوة الغزو الاستعماري لميادين الثقافة ووسائل الفكر واجهزة الاعلام .

وبقدر ما للقرآن الكريم من نفوذ على الضمير الشعبي ، كان له الدور القيادي في وحدة هذه الامة العربية من اقصى المشرق الاسيوي الى اقصى المغرب الافريقي ، يلتقي ابناءها فكرا ووجدانا ولسانا ، عبر الحواجز الفاصلة والاسوار العازلة .

من هنا قلت واقول ان الوعي الاسلامي هو الذي يحمي اللغة العربية حتى في الاقطار التي ضري فيها الغزو الفكري ، وهو الذي يرهف ضميرها القومي ويشجد نضالها لتحرير لسانها وحماية وجودها ، وليس الوعي هو الذي يتأثر باللغة العربية قوة وضعفا، فهناك اقطار يتالق فيها الوعي الاسلامي رغم ضعف اللغة العربية فيها ، وهناك اقطار لم يسرق المستعمر لسانها وتعد من مراكز اللغة العربية نشرا وتاليفا ، مع فتور الوعي الاسلامي فيها .

(3) اما في خصوص مدى تأثير الفكر الاسلامي، عن طريق لغة القرآن ، في اللهجات او اللغات الاقليمية في الاقطار الاسلامية غير العربية فمبلغ علمي ان هناك في الاقطار الاسلامية غير العربية ، مراكز قوية لنشر اللغة العربية ، معتمدة اكثر ما تعتمد ، على القرآن الكريم . واذكر منها على التحديد ، الهند وايندونيسيا وايران وتركيا ، حيث اعلم ان لعلماء الاسلام فيها دراية بالعربية ونشاطا سخيا في خدمتها ونشرها . وجامعة حيدر اباد الاسلامية تنهض بعبء جليل في خدمة اللغة العربية بكتاب الاسلام ، وجمعية علماء الاسلام في تركيا، لها نحو سبعين فرعا في انحاء البلاد التركية ، واكاد اقول ان مدارس القرآن فيها ، وهي تبلغ بضع مئات، توشك ان تحدث تطورا بالغ الاتر ، في حياة الاسلام والعربية بتركيها .

(4) العربية واللهجات المحلية

وقد تابعت الاتصال باللهجات المحلية في مصر وفي سائر اقطار الوطن العربي . واقدر هنا ان هذه اللهجات لا تعدو ان تكون لهجات عربية تأثرت بعوامل صوتية واقليمية . ونحن نبالغ كثيرا في تصور هوة سحيقة بين هذه اللهجات وبين الفصحى ، مع ان اللهجات غنية بالانفاظ الفصحى ، وقد آن لنا ان نكف عن نظرة العداوة وفكرة الخصومة بين العربية ولهجاتها الاقليمية ، فنقدر ان ظاهرة الازدواج اللغوي ظاهرة طبيعية ، وان اللهجات العامية ، لهجات عربية وليست

ان كتبت موضوعا انشائيا بفصحى العامية ، وطلبت الى عدد من المدرسين ان يصححوه ، فاستبعدوا منه عشرات من الالفاظ ، وهي فصحة وقرآنية ، واستبدلوها بالفاظ اخرى دونها فصاحة ، وكانهم حسبوا ان كل ما يجري على السنة العوام ، قد خرج نهائيا من اللغة العربية ، وهذه هي المأساة التي ارجو ان يواجهها مكتب تنسيق التمريب بما يضع حدا حاسما لها .

5 مكانة العربية بين اللغات الاجنبية

والمكانة التي يجب ان تحتلها اللغة العربية في اي بلد من وطننا العربي بالنسبة الى اللغات الاجنبية، لا يجوز في رأبي ان تكون موضع خلاف ، فالامر امر وجود ومصير لهذه الامة ، وانما الذي ينبغي ان ينتجه اليه النظر ، هو مقاومة اثر طغيان المترجمات التي تنشرها فينا مؤسسات للفزو الفكري فاحشة الثراء ، فتروج للبضاعة الوافدة بما تسخو في الانفاق عليها وتندق لها طبول الدعاية واجراس الاعلان ، على حساب الفكر القومي الذي يجب ان تكفل له الحماية من هذه المنافسة الخطرة، لتظل له المكانة الاولى في ثقافة الامة.

واعتقد ان **القرءان الكريم يجب ان ياخذ المكانة الاولى في الدراسات الجامعية** ، لا من حيث هو كتاب شريفة ودين فحسب ، ولكن من حيث هو كتابنا الاكبر الذي يمنحنا ذوق العربية الاصيل وبيانها المعجز ، ويعطينا القيم والمثل التي ترسخ فكرنا القومي وتمده بأصول في الاجتماع والفكر والقضايا الحيوية ، يكون لنا من اصلتها ما يحمي اصلتنا في دوامة التيارات الوافدة من شرق وغرب .

ونحن مهما تعدد لهجاتنا المحلية وتغير فنوننا الشعبية ومذاهبنا الاقتصادية والسياسية ، يبق القرءان الكريم كتابنا المشترك الذي نلتقي عنده . وانفراد القرءان بهذا الدور القيادي الخطير الجليل في تأصيل وحدة شعوب الوطن العربي وتقرير مصيرها وضمان تفاهمها المشترك والتقاءها الفكري ، هو الذي يجلو الاهمية القصوى لجدوى المحاولة في اعطائه منزلة الاولى في مدارسنا وجامعاتنا .

لهجات لغات اجنبية . وقد تأثرت كل لهجة بعوامل حتمية اختلفت بها طريقة النطق والاداء ، ودلالات الالفاظ ، لا بين قطر وآخر فقط ، بل بين اقليم واقليم من القطر الواحد . نحن في مصر مثلا ، تختلف لهجة الصعيد عن لهجات الوجه البحري ، ولهجة البوادي عن الثفور ، ولهجة الريف عن الحضر . ويرجع ذلك الى عوامل تاريخية واخرى اجتماعية : فمع الفتح الاسلامي هاجرت قبائل عربية شتى الى مصر واستقرت في مناطق مختلفة ، فتركت كل قبيلة اثر لهجتها على اللهجة المحلية للمنطقة التي استقرت فيها. ومع الزمن تأثرت لهجات العواصم والثفور بالجات الاجنبية فأخذت بعض الفاظها وعربتها ، على حين بقيت لهجات القبائل العربية في المناطق البعيدة نسبيا عن الاختلاط ، كالريف والبادية والواحات دون ان يبلغ الامر بلهجات العواصم والثفور ، الخروج عن ان تكون لهجات عامية في العربية ، ودون ان يمس الموقف جوهر الوحدة اللغوية التي تقوم اساسا على الفصحى ، لغة القرءان الكريم ، بل تبقى هذه **الفصحى اللغة المشتركة التي يتم بها التفاهم على المستوى العام لاقليم القطر الواحد** ، ولاقطار الوطن العربي كله على اختلاف لهجاته . ومن ثم تحيا الفصحى متحدة كل ذرائع الفزو بفضل هذا القرءان الذي اعطانا لساننا المشترك وضمن وحدتنا اللغوية .

وفي رأبي ، ان من اجدى ما يقوم به مكتب تنسيق التمريب بالرباط ، الدعوة الى **تأليف لجان في كل قطر عربي** ، تمكف على استخلاص الالفاظ الفصحى التي تدور على السنة الشعب في كل لهجة محلية ، وتكون هذه الالفاظ من **فصحى العامية** ، هي اساس التعليم في حركة التمريب وفي مراحل المدرسة الابتدائية ، بدلا من الالفاظ المعجبة المائة . ولندرك ان الالفاظ الفصحى التي في اللهجات العامية، ليست دنسا. ولنكف من تصور انها ابتذلت بجريانها على السنة الجماهير ، فالواقع انها اخذت بذلك شهادة من الحياة ، بصلاحياتها للبقاء .

وقد حدث مرة ان امتحان بعض المدرسين المرشحين للاعارة لتدريس العربية في الاقطار الشقيقة،